المشرق

التذكار المئوي

لوفاة السعيد الذكر السيد اغناطيوس ميخائيل جروه

اوّل بطاركة السريان الكاثوليك (١)

نبذة تاريخية للاب لويس شيخو اليسوعي

في ١٦ ايلول من السنة ١٨٠٠ استأثرت رحمة رب الانام باحد جنود المسيح الشهام. الذين دافعوا عن الحق بقلب اشدّ من الزبال. وثبات طالما سخر من النوائب والاهوال. ألا وهو بطلّ اذاقهُ اعداؤهُ ضروب الشجون. وهو يريهم الصبر كيف يكون. الى ان حلّ الله رباقهُ. وارخى خناقهُ. فجعلهُ كخليلهِ ابراهيم. ابًا لنسل عظيم. نزيد الطيب الذكر والحميد الأثر. اوّل بطاركة السريان الكاثوليك السيد ميخائيل جروه. الذي بلغ من الكمال الذروة

فلم يرضَ ابناء ملّتهِ الافاضل. ان يمرّ هذا التذكار القرنيّ دون ان يُقام لصاحبهِ عيد حافل. فلمّا كان الاحد الواقع في ١٦ ايلول الماضي. جرت في كنائس الطائفة السريانية. حفلات شائقة دُعي اليها رجوهُ الملل الكاثوليكية. فأُقيمت رتبة القداس لراحة نفس ذلك الحبر الهمام. الذي ادخل رعيَّتهُ في حظيرة الأمن والسلام. وفي ختام الذبيحة التقيَّة. تُليت صلوات الجناز باصوات شجيَّة. وفي بعض الاماكن تسنَّم المنابر مصاقيع الخطباء. فأثنوا على المحتفَل بذكرهِ اطيب الثناء. وعدّدوا مناقبهُ الغرّاء. التي اكسبتهُ مجدًا لا تغتالهُ ايدي البلاء

وبهذه النسبة احببنا نحن ايضًا ان ندوّن في صفحات المشرق خلاصة اعمال هذا

(١) انّا نعتبر هنا سلسلة بطاركة السريان الكاثوليك منذ انفصالها عن السلسلة اليعقوبيّة

البطريرك الجليل ليرى الشرقيون لاسيما السريان ما قاساهُ اجدادهم في سبيل الايمان. فيزيد اعتبارهم لدين كلّ ما سواهُ فانٍ . فيحافظوا عليهِ محافظة الضنين . على الكنز الثمين

١

وُلد ميخائيل جروة سنة ١٧٣٦ للميلاد في مدينة حلب وكان والداهُ من شيعة السريان اليعاقبة الّا انهما كانا يسيران في مذهبهما ببساطة القلب فلم يعاندا الحقّ . ونشأ ابنهما ميخائيل مقتديًا بآدابهما لا يشك في صحّة دينهِ . الّا ان الله بعنايتهِ الصمدانيّة ارشدهُ منذ ذاك الوقت الى معرفة كثيرين من مواطنيهِ الذين كانوا جحدوا اضاليلهم ليدينوا بالايمان الكاثوليكي

والحقّ يُقال انّ الشهباء كانت اضحت في اوائل القرن الثامن عشر مركزًا مهمًا لحركة ارتداد الطوائف المنفصلة والفضل الاعظم في ذلك عائد الى المرسلين اللاتينيين الذين قدموا تلك المدينة بامر الاحبار الرومانيين نخصّ منهم بالذكر الآباء اليسوعيين

وكان اوّل دخول الرهبانيّة اليسوعية في حلب سنة ١٦٢٥ في عهد البابا اوربانوس الثامن اتاها بايعاز الكرسي الرسولي الابوان الفرنسيّان حنّا ستيلا (Stella) وغسبار مَنيليار (Maniglier) . فما كادت قدمهما تستقرّ في الشهباء حتى ثارت عليهما ثوائر الشحناء ورشقتهما سهام الحسد الى ان منحهما الله الفوز التامّ بين ناواهما . وكان منزلهما في خان الفرنج يخدمان النفوس خدمةً نصوحًا كما ذكر ذلك القنصل الفرنسيّ دَرفيو (Le Chevalier d'Arvieux) في كتاب اعمالهِ وحوادث حياتهِ وألحقهُ بالثناء الجميل

وممّا سعى بهِ اليسوعيون منذ ذاك الحين انّهم جمعوا كلمة الكاثوليك وانشأوا اخويّات تقويّة انغمسوا فيها روح الدين وكان اعضاء هذه الجمعيات من جميع الطوائف فزاد بذلك ائتلاف القلوب ونما التحابّ مع نموّ التقوى والاعمال الخيريّة

وكانت هذه الاخويّات لا تزال في ازدياد متواصل حتى اضطرّ المرشدون ان يقسموها الى ستّة اقسام كانوا يديرونها في كنائس البلدة واضافوا اليها ارشاد الاحداث وتلقين الجهّال التعليم المسيحي

على انّ المرسلين لم يكتفوا بتهذيب الطوائف الكاثوليكيّة بل صرفوا نظرهم الى الاخوة المنفصلين ليجتذبوهم الى سراط الحقّ فوفّق الله مساعيهم وجمعوا عددًا غفيرًا

من الارمن والروم (١ واليعاقبة لا يقلون عن عشرة آلاف نسمة. وقد اشتهر منهم بالغيرة في هداية الضالين الآباء اليسوعيون ايرونيم كيرو (Queyrot) واميو (Amieu) وحبيب شيزو (Chézaud) وغليوم غوده (Godet) وميخائيل نو (Nau) وريته كليسون (Clisson) وانطون ناخي الماروني القبرسي وبطرس فرومج الذائع الشهرة وجبرائيل ديسورغ (Désorgues) وفرنسيس كوسّه (Causset) واسطفان كينو (Cuénot) ولكلّ هؤلاء الآباء رسالات وتآليف تشهد لهم بسموّ الفضل وسعة المعارف

وقد وجد المرسلون في قلوب اليعاقبة الحابيين خصوصاً ارضاً جيدة ألقوا فيها بذر الايمان فجاءت بثمار حسنة ابهجت كنيسة الله. فمن ذلك انهم افرغوا جهدهم في اواسط القرن السابع عشر في هداية اندراوس اخيجيان الى نور الحق. ولمّا توفي قسطنطين مطران حلب على اليعاقبة اقنعوا الشعب بان يختاروه لهم راعياً ثم ارسلوه الى لبنان الى غبطة البطريرك الماروني يوحنّا الصفراوي الذي سفّنهُ على حلب باذن الكرسي الرسولي. ولم يلبث الحبر الاعظم اقليمس التاسع ان ارسل لهُ درع الرئاسة وجعلهُ بطريركاً على المرتدّين الى الكثلكة (١٦٦٧) فدُعي اغناطيوس اندراوس. وخلفهُ في رتبته بعد وفاته (١٦٧٨) بطرس غريغوريوس اغناطيوس. الّا ان يعاقبة ديار بكر وماردين اثاروا عليهِ الاضطهادات الشديدة وسلبوهُ كنيستهُ في حلب وألقوهُ في السجن وفيهِ توفّي (سنة ١٧٠١) لما نالهُ من المحن والبلايا. وبقي الكرسي البطريركي بعدهُ فارغاً اثنتين وثمانين سنة

على انّ الحزب السرياني الكاثوليكي لم يتزعزع في ايمانه من جرّاء هذه الشدائد بل ازداد ثباتاً شأن الشجرة التي تعصف بها الريح فتتأصّل جذورها في اعماق الارض. وكان مع ذلك عدد الذين نبذوا البدعة اليعقوبية لا يزال في نموّ دائم الى ان اقام الله ميخائيل جروه فجعلهُ في يدهِ القديرة كآلة لخلاص اهل جلدته

١) كنّا ذكرنا في المشرق (٣ : ٢٦١ و ٧١٩) انّ العلّامة الشهير عبد الله زاخر ممّن ارتدّوا في شبابهِ عن الهرطقة الى الايمان الكاثوليكي على يد المرسلين. وقد قرأنا في كتاب تاريخ انطون بن الشيخ ابي خطّار (ص ٧٣) ان الخوري الماروني الشهير بطرس التولاوي البتروني ممّن سعوا في جذب عبد الله زاخر الى الايمان الكاثوليكي. هذا كلامهُ بالحرف قال: «وصار للخوري بطرس التولاوي جملة تلاميذ فمن الملكية اثنين (كذا) وهما عبد الله زاخر المشهور بالطبع والخوري نيقولا الصائغ. وهذين (كذا) قد ردّهما من الهرطقة والكفر الى القرار بالكنيسة الرومانية»

٢

قلنا ان ميخائيل في صباه عرف الدين الكاثوليكي واجتمع باصحابه في وطنه. لكنَّ الله سمح بان يبقى الى مدَّةٍ في ضلاله ليحصل من ذلك خير اعظم لطائفته. وقد اخبرنا هو بنفسه كيف تمَّ امر ارتداده في كرَّاسةٍ مخطوطة تُصان الى اليوم في مكتبة دير سيدة النجاة في الشرفة اطلعنا عليها حضرة رئيسها المفضال الخورفسقوفوس بولس هبرا

ومما افادنا في ترجمة حياته المذكورة انهُ رُقِّي الى درجة الكهنوت في سنة ١٧٥٧. الى ان قال:

« وبعد ارتقائي قسيساً باشهر قليلة إقامني البطريرك اليعقوبي كيوركيس (جرجس) الثاني رئيساً على كنيسة حلب لانني كنتُ وقتئذٍ اراتيكيًا عالميًا عن ارطقة ديوسقوروس وعدوًا خصوصيًا للبطريرك المذكور. غير انَّ الله الرحوم المحبَّ ان يُقبل الجميع الى طريق الخلاص انار عقلي وصيَّرني ان افهم واذعن للحقّ فابتدأت حينئذٍ اسعى في ان يقبل الحقّ معي جميع شعبي وبني جنسي . . . وقد تعبتُ جدًّا وغرمت اموالاً جزيلة وحصلت لي اضطهادات صعبة جدًّا ثماني سنوات حتَّى رفعتُ من كنيستي العوائد الاراتيكيَّة وادخلتُ بدلاً منها عوائد الكنيسة الكاثوليكية »

وكان القس ميخائيل في تلك الاثنا مرتابًا في امره يضمر في نفسه الكثلكة وهو مع ذلك لا يذعن لها تمامًا وانَّما يجتزئ باتخاذ بعض العبادات الكاثوليكية والاقتداء بالرسلين اللاتين. وقد اخبرنا عنهُ الاب فرنسيس كوسه (Causset) اليسوعي انهُ انشأ بين ابناء ملَّته شركة الوردية والاخويات والارشادات وكان يقرأ لهم فصولاً من الكتب الكاثوليكية كمدخل العبادة للقديس فرنسيس سالس والكمال المسيحي لرودريكس وتأملات الجسري. فجعل كثيرون يتقاطرون الى استماعه وهو مع ذلك لا يزال تحت طاعة البطريرك اليعقوبي ساكتًا عن تعليم بدعته

فخاف اليسوعيون ان تكون طريقة القس ميخائيل جروه احبولةً لصيد السذَّج فيعود بهم الى الضلال. ولدينا رسائل وجَّهها اليه الاب فرنسيس كوسه (١ المذكور سنة ١٧٦٠ يشرح لهُ فيها الايمان الاورثدكسي ويبيِّن ضلال اليعاقبة ويحضُّهُ على نبذ شيعته تمامًا لئلا يصير حجر عثرةٍ لذوي نحلته. فما بلغت هذه الرسائل القس ميخائيل حتى جزم على الرجوع التام الى حظيرة المسيح. ثمَّ اردف القس ميخائيل:

١) مات هذا الاب سنة ١٧٦١ شهيد محبته في خدمة المطعونين

« واذ نظرتُ بعد كلّ عملي هذا اني لم اقدر ان اظهر ذاتي كاثوليكيًا بالتمام لشدة خوفي من الفراطقة ذهبت الى مدينة ديار بكر التي تبعد عن حلب خمسة عشر يومًا حيث كان البطريرك اليعقوبي كيوركيس الثاني الرهاوي مقيمًا. فبقيت عندهُ سنة كاملة لاجتذب قلبهُ نحوي وانا اتباحث مع اليعاقبة هناك واتودّد اليهم وارشدهم وابذر زرع الايمان الكاثوليكي خفيةً. غير اني ما قدرتُ على جذب قلب البطرك بل صيَّرني اسقفًا على حلب جبرًا وقهرًا (١) وامرني ان ارجع الى بلدي واردّ جميع عوائد الاراطقة كما كانت قبلًا. فلمَّا نظرتُ اني ملتزم بالرجوع اضمرت في قلبي بكل شجاعة سبعية انني لا افعل من مطلوبات البطرك شيئًا بعد وصولي الى حلب نهائيًا بل ازيد عمَّا كنتُ عليهِ قبلًا لاني صرتُ الآن اسقفًا ورئيسًا. غير انهُ بعد رجوعي الى حلب بأيام قليلة مات هذا البطرك مصرًا على عنادهِ وقام آخر غيرهُ شرٌّ منهُ وهو الموصلي كوركيس (جرجس) الثالث فصار يضطهدني بالاوفر فسبَّب لي اتعابًا شاقَّة وغرَّمني اموالًا وافرة. فحينئذٍ اتَّفقت مع المتقدّمين في كنيستي وذهبتُ الى دير الزعفران الذي يبعد عن حلب مقدار عشرين يومًا وتواجهتُ هناك مع هذا البطرك وقصدي اخذ خاطرهِ وجذب قلبهِ بالمال لانهُ كان شديد الطمع اليهِ لاقدر ان أجاهر انا وكنيستي بالايمان الكاثوليكي فما امكنني ذلك. بل امرني بعد اخذ المال ان اجلس في الدير عندهُ فبقيت مقيدًا تحت حكمهِ اربع سنوات كاملة اقدّس مع شماسي في مكان منفرد. غير انهُ في اثناء ذلك جرى المتقدّمون في حلب حسب الاتّفاق وبكل دراية مقدّسة مع مساعدة الاباء المرسلين فنادوا بالايمان الكاثوليكي في كنيستي واظهروا ذواتهم جهارًا وارسلوا مَن يخبرني بما صنعوا

« فلمَّا بلغ البطريرك الاراتيكي خبر هذا العمل المقدّس نسبهُ اليَّ في المال وزاد في اضطهادي لوجودي بين يديهِ. غير انَّ القوَّة الالهيَّة اعانتني في تلك الايَّام حتَّى صبرتُ على كلّ ما جرى عليَّ ولمَّا وجدت فرصةً مناسبة هربت الى حلب »

وكان الخبر الاعظم في تلك الاثناء قد بلغهُ خبر ارتداد الاسقف جروه وملَّتهِ الى حجر الكنيسة الرومانية فارسل احد قصَّادهِ ليجتمع بهِ ويفحص عن صحَّة ايمانهِ. فكان اوَّل ما فكَّر فيهِ ميخائيل ديونيسيوس ان يستدعي القاصد الرسولي الى بيت ابيهِ ليتلو بين يديهِ وبحضور عدد وافر من الاكليروس دستور الايمان المستقيم. فلمَّا تلاها نال الحلّ عن الاراطقة وحرَّر كتبًا الى المجمع المقدَّس يوضح فيها خضوعهُ التامّ لرئيس الاحبار وخليفة هامة الرسل وارسلها الى رومية مع صورة ايمانهِ ممضاة باسمهِ وختمهِ

فسرَّ ابو المؤمنين بمطالعة هذه الرسالة وأيَّد صاحبها بسلطانهِ ومنحهُ نعمًا ومواهب خصوصية اعربت عن انعطافهِ السامي. لكن ابليس عدوّ كل خير لم يدع ابن الكنيسة زمنًا طويلًا دون ان يثير عليهِ فتنًا جديدة كادت تذيقهُ العلقم. فانَّ البطرك اليعقوبي لمَّا بلغهُ انَّ اسقف حلب خرج عن طاعتهِ قدم مسرعًا الى حلب وصحبتهُ مطارين ورهبان

(١) ودُعي حينئذٍ ميخائيل ديونيسيوس

واستعان بالقوة الجبرية فضبط الكنيسة وكبّل اسقفها بالقيود وحبسهُ مدةً واذاقهُ مرَّ النكال. لكنَّ الله افرج عن المظلوم بعد قليل فاخرجهُ الحكّام من حبسهِ مكرَّمًا واعادوه الى كنيستهِ رقموا طغيان مضطهدهِ الذي اضطرَّ الى ان ينفتل راجعًا الى دير الزعفران وقلبهُ يتلظّى غيظًا على طريدتهِ المتملّصة من بين يديهِ. فاخذ من ثمَّ يرسل مناشيرهُ الى كلّ الجهات يُعلن بها حرم اسقف حلب غير انَّ سهامهُ ذهبت طائشة

وكان حزب ميخائيل ديونيسيوس جروه يتقوّى يومًا فيومًا وكثير من الحلبيين يجحدون الضلال اليعقوبيّ الى ان سوَّل الشيطان لبعض هراطقة الارمن ان يعضدوا اليعاقبة ويسموا بهم ظلمًا عند ذوي الامر ويتخذوا الرشوة كشِصّ لترويج غاياتهم. فاجتمعوا في يوم من آحاد السنة زرافاتٍ ووحدانًا الكاثوليك في ساعة القداس الكبير فضربوا قومًا منهم واقتادوا غيرهم الى السجن وبدَّدوا شمل الرعيَّة جمعاء. اما راعيهم فنالهُ من المحن اضعاف ما نال اصحابهُ فانَّ اعداءهُ اوسعوهُ ضربًا وكبَّلوهُ بالاغلال وابرزوا عليهِ حكمًا ليُقتل شنقًا. وكاد الامر يتمُّ فعلًا لولا انَّ الله ألهم بعض اهل الخير وذوي النخوة فتشفَّعوا به واقتدوهُ بالمال وبيَّنوا براءتهُ حتى انقذوهُ من يد اعدائهِ. وكان من جملة من توسَّطوا في امرهِ روسّيل ممثل الدولة الفرنسويَّة والترجمان موسى انطون

فلمَّا رأى الهراطقة ان مساعيهم ذهبت ادراج الرياح كتبوا الى بطرك الارمن في الاستانة العليَّة يستعينون بهِ ليصدر لهم امرًا في نفي خصمهم الألدّ ميخائيل جروه مع كهنتهِ واعيان كنيستهِ ووعدوهُ بالمال الوافر ان مكَّنهم من الكاثوليك اعدائهم. فطمع البطرك بالمال الموعود ولم يدَّخر وسيلة لتحقيق آمال اصحابهِ الى ان أفازهم بالمرغوب. فارسل من يبشّر يعاقبة حلب بصدور الحكم. فسُرَّ هؤلاء ومنّوا النفس بالظفر القريب

امَّا المطران ميخائيل فانَّهُ لم يرَ طريقة للنجاة من هذه المحنة الجديدة الَّا ان يفرّ من ايدي اعدائهِ فقام ليلًا وهرب الى اللاذقيَّة ثمَّ ابحر الى قبرس ومنها الى الاسكندريَّة وبقي هناك مختفيًا مدَّة سبعة اشهر. فكتم اليعاقبة براءة الحكم واشاعوا انَّ مساعيهم قد حبطت وانَّ الامر في نفي ميخائيل جروه لم يصدر قطعًا. وكان ذلك مكيدة منهم نصبوها ليوقعوا في اشراكهم عدوَّهم الازرق

فنما هذا الخبر في حلب وصدَّقهُ الكاثوليك وكتبوا لمطرانهم ان يعود مطمئنًا الى كنيستهِ. فانثنى ميخائيل عائدًا الى كرسيهِ على طريق رشيد ثمَّ دمياط ثمَّ يافا وتبرَّك بزيارة قبر المسيح في القدس الشريف وواصل سيرهُ الى اللاذقية فحلب

وكان اليعاقبة راصدين لخصمهم حتى اذا استقرَّت قدمهُ في ربع وطنهِ اشهروا للحال براءة الحكم في نفيهِ. فلمَّا وصل تحاملوا عليهِ باجمعهم وضبطوا كنيستهُ واخرجوهُ من حلب مهانًا مشبعًا باصناف الآلام. قال في ترجمة حياتهِ:

« ووضعونا عند الجلَّاد في البرّيَّة مدة ١٣ يومًا الارضُ فراشنا والسماء غطاؤنا والجنازير (الزناجير) في رقابنا والقيود في ارجلنا ليلًا ونهارًا مع اتصال التهديدات والتخويفات بالقتل والتفي وطلب اموال تفوق القوَّة حتَّى قطعنا الرجاء من الحياة »

وما سكنت هذه الثورة الَّا بنعمة خاصَّة من الله فمدَّ الربُّ يد المساعدة الى عبدهِ وخلَّصهُ من مخالب اليعاقبة اعدائهِ وذلك بعد ان تكفَّل بدفع اربعين كيسًا من المال اعني عشرين الف غرش وكان هذا المبلغ في تلك الأيام عبارة عن ثروة واسعة لا يحصل عليها الَّا كبار الاغنياء. فمن ثمَّ قاسى المطران ميخائيل شدائد عديدة ليجمع هذا المال الطائل واعداؤهُ لا يزالون يتأثرونهُ الى ان دفع لهم آخر فلس. قال السيد ميخائيل في ترجمة حالهِ:

« غير انَّ الملك العادل انتقم لنا وشيكًا من هذا البطرك الظالم حيث انهُ بعد مدَّة قليلة دهاهُ مرضٌ عضال انفصلت بهِ نفسهُ عن جسدهِ ومات بهذه الحالة الشنيعة مصرًّا على عنادهِ »

٣

كانت وفاة البطرك اليعقوبيّ جرجس الثالث الموصلي في اوائل سنة ١٧٨١. وبهِ انقطعت سلسلة بطاركة اليعاقبة الشرعيَّة وابتدأت سلسلة كاثوليكيَّة اعادت لكنيسة السريان رونقها القديم وهاك بيان الخبر كما رواهُ المطران ميخائيل جروه قال:

« وبعد وفاة البطرك حالًا اتَّفق جميع اليعاقبة وسريان بلاد ما بين النهرين مع مطارنيهم والرهبان والكهنة وارسلوا اليَّ معروضات مختومةً وممضاة من جميعهم مع احد السماة قاطلموني بموت بطركهم ودعوني لأقوم عليهم بطركًا عوضًا عنهُ وكانوا في كتابهم يستحثونني في ان اسرع بالحضور اليهم بغير تأخير. فبعد وقوفي على كتبهم وطلبهم ارسلتُ اليهم جوابي بعدم امكاني من قبول دعوتهم لاني انا بنعمة الله كاثوليكي وهم يعاقبة. فلمَّا وصلهم جوابي عادوا فكتبوا لي رسائل جديدة ضعف الاولى امضوها وختموها باسماء جمٍّ غفير من جماعتهم. وكان مضمون هذه الكتابات انهم جميعًا بقلب واحد ورأي واحد يرتضون بإبائي ورأي الكاثوليك وانهم قد رفعوا (من كنيسهم

الكنائسية) اسماء السبعة المحرومين ولفظة « يا مَن صُلبتَ لاجلنا » واضم يفعلون مهما امرتهم بشرط ان اصير عليهم بطريركاً . وهكذا صارت التحاريز ثلاث مرات بكلّ لجاجة مدّة ثلاثة اشهر . فلمّا نظرتُ ثباتهم على رأيهم سرت اليهم بمشورة مَن لهم المشورة واخذتُ معي كهنة وشمامسة من حلب وتكأّدتُ في ذلك كثيراً زائدة . وكان دخولنا ماردين في ١٥ تشرين الثاني ١٧٨١ بعد سفر ١٢ يوماً . فاستقبلنا البعاقبة بكل اكرام وجعلوا يتواردون الينا كباراً وصغاراً ويرتشدون بالايمان المقدس ويقبلون الحلّ من الارطقة »

ثمّ بقي المطران جروه أياماً يتجسّس احوال الجماعة ليرى صدق طويّتهم وهو لا يدخل كنائسهم . والقوم في تلك الاثناء يأتونهُ افواجاً افواجاً ويتوسلون اليهِ بان يذهب الى كنائسهم ويكرّسها ويقرّب فيها الذبيحة الالهيّة . واقبل اليهِ ايضاً الاساقفة وخضعوا لهُ بعد ان نبذوا الاضاليل اليعقوبية . وتأخر منهم اثنان كانا سابقاً في خدمة البطريرك المتوفّى وتشرّبا بغضهُ للكثلكة فاخذا يستميلان اليهما الشعب ويغويانهِ بكلامهما الباطل ويزرعان زوان الفساد . فظنّ المطران ميخائيل انهما طامعان في البطريركيّة فسمح لهما فيها بشرط ان يتّحدا بالكنيسة الرومانية ويتلوا صورة الايمان المفروضة من البابا اوربانوس فأبيا وثبتا في غيّهما وهما مع ذلك ساعيان في ضبط الكنائس لئلا يدخلها المطران الكاثوليكيّ وقدم ايضاً مطران القدس بعد مدّة واتفق معهما فكان ثالثة الاثافي

امّا الحزب الكاثوليكي فلمّا رأى شراسة هؤلاء تخوّف من استفحال الامر فاستولى على احدى الكنائس وصار المطران جروه واتباعهُ يقيمون فيها الرتب الطقسيّة . ثمّ استمالوا اليهم الحكّام وارسلوا جميعاً الى والي بغداد لوقوع ماردين تحت حكمهِ وطلبوا اليهِ ان يرخّص لهم بانتخاب مطران حلب بطريركاً على دير الزعفران ريثما ينال من الباب العالي فرماناً مؤذناً بذلك . قال السيد ميخائيل في ترجمة نفسهِ :

« فحضر من والي بغداد امر للحاكم ان يلبسني كركاً (فروة) ويقيمني بطريركاً على دير الزعفران وعلى السريان كافةً وكتب انّهُ ارسل الى الباب العالي ليحضر الفرمان . فللحال فعل حاكم ماردين كما أُمر . وبعد ان اخذوني باحتفال عظيم وايّدوني الملّة البطريركية قادوني من هناك الى الكنيسة الكبيرة الوف اماني والوف وراني . وحينئذٍ حضر جميع المطارين وادّوا لي الخضوع واربعة منهم تلوا صورة الايمان التي لاوربانوس البابا . وبعد ايّام قليلة في ابتداء كانون الثاني من سنة ١٧٨٣ اخذني هؤلاء الاربعة الى دير الزعفران وهناك رسموني بطركاً (١ عليهم بحضور اساقفة الارمن والكلدان

(١ وزاد مذ ذلك الوقت على اسمهِ اسم اغناطيوس فعُرف باغناطيوس ميخائيل . واما اسماء المطارنة الذين جعلوهُ بطريركاً فهي ابراهيم ونعمة وموسى وجرجس بشاره

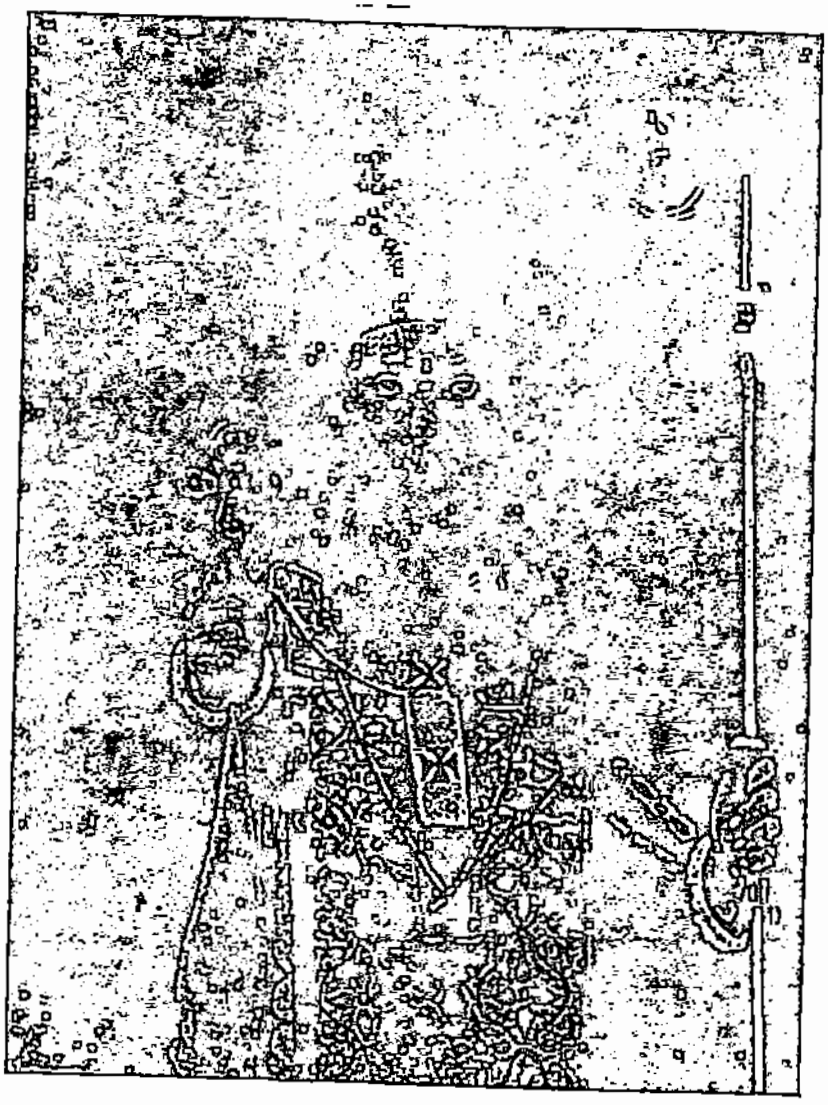

السعيد الذكر اغناطيوس ميخائيل جروه

اوّل بطاركة السريان الكاثوليك (١٧٨٣ — ١٨٠٠).

الكاثوليكيين والمرسل اللاتيني في ماردين. وحضر هذا الاحتفال الوف الوف من الشعب. ثم بعد يومين رجعنا الى البلد . . . وارسلتُ كهنة كاثوليكيين لبقية الكنائس »

وبينما كانت تلك الرتب الجليلة تُقام في دير الزعفران كان الاسقفان العاصيان المارّ ذكرهما يدسّان الدسائس للبطرك الجديد فانهما سلبا كلّ مال البطرك المتوفى وهربا مع الرهبان من اتباعهما الى جبل العصاة اعني طور عابدين حيث يقيم جمهور كبير من اهل بدعتهم ذوي اطباع فظّة واخلاق شرسة فاحتميا عندهم وتآمرا معهم على قتل البطريرك وكان قصدهم ان يدخلوا المدينة ليلًا ويقتالوا البطرك في دارهِ لانّ بيوت ماردين راكبة على بعضها بغير حائط ولا حجاز يسهل الولوج فيها. فعلم البطرك واحتار في امرهِ ومما زاد على خوفهِ ما رآهُ في تلك الاثناء من اكراد الجبال الذين عصوا الدولة العليّة وفتحوا ماردين عنوةً وكان اليعاقبة يواطئونهم في سوء اعمالهم. فلم يجد البطرك الكاثوليكي بدًّا من ان يتوارى من وجه اعدائهِ وكان يختفي في كلّ ليلة في بيت احد انصارهِ ويعهد بحراسة الكنيسة الى بعض الناس الامناء. امّا النهار فكان يقضيهِ في الصلاة في البيعة

وبقي الامر كذلك الى يوم خميس العهد فاجتمع من الهراطقة قوم كبير ودخلوا الكنيسة الكبرى وقصدهم ان يقتلوا البطريرك فاخذوا يصرخون ويتهدّدون رجل الله ويلومونهُ على عدم اجازتهِ للكهنة اليعاقبة ان يصلوا في كنيستهِ . فاحاط الكاثوليك بالبطريرك ودافعوا عنهُ وردُّوا اعداءهُ خاسرين. ثمّ عاد هؤلاء الاشقياء مرارًا كثيرة يفكرون في انجاز مقصدهم الشرير فلم ينجحوا الى ان ارسلت الدولة السنيّة حاكمًا يطرد الاكراد من ماردين فتمكّن منهم وقطع دابرهم وخاف اليعاقبة من سطوة الدولة فعادوا الى جبالهم واخبروا مواطنيهم انهم لم يحصلوا على فرصة مناسبة لتتميم مرادهم

ثمّ ارسل البطرك ميخائيل اغناطيوس كتابًا مطوّلًا الى امام الاحبار بيوس السادس يخبرهُ بكيفيّة انتخابهِ وما نالهُ بسبب ايمانهِ من المحن والبلايا وهو يطلب من الحبر الاعظم ان يثبتهُ في منصبهِ الجديد. فاجاب الاب الاقدس الى ملتمسهِ في منشور اصدرهُ في ١٤ ايلول من سنة ١٧٨٣ ومنحهُ السلطة التامّة على طائفة السريان وقلّدهُ درع البطاركة على يد اسقف بغداد اللاتيني حنّا ميرودر دو بُرج (Miroudot du Bourg) وابطل انتخاب كلّ دخيل سواهُ

وذلك انّ اليعاقبة لمّا رأوا انّ طائفتهم اوشكت على الاضمحلال بانتخاب البطرك جروه شرعيًا اجتمعوا تحت امرة احد المطرانين العاصيين المدعو متى واختاروا لهُ اربعة من الرهبان اساقفة يتمّ بهم العدد اللازم ليختاروهُ بطريركًا. فاجابوا الى ملتمسهِ ونصبوهُ بطريركًا دخيلًا

وكان متى المذكور رجلًا جسورًا كثير الحيل. فاشهر على خصمهِ حربًا عوانًا لم تخمد لظاها الّا بعد سنتين قاسى في مدّتها البطريرك الشرعي ضروب النكبات وابتُلي بأصناف البوائق

واوّل ما فعلهُ متى الدخيل انهُ منع بدسائس البطريرك الارمني في القسطنطينيّة صدور الفرمان الذي طلبهُ والي بغداد مع غيرهِ من الذوات لخائيل جروه فقويت شوكة المضادّين وزادوا ظلمًا وتعصّبًا واغتصبوا كنيستَي ديار بكر وماردين من ايدي الكاثوليك وتزعوا عنهم ايضًا كنائس القرى المرتدّة الى الايمان. وبلغت بهم الوقاحة الى ان سموا بقتل خوري كاثوليكي يدعى يعقوب كان رقّاهُ البطريرك الشرعي الى درجة الكهنوت قبل وهو يصرخ « اموت على دين المسيح كاثوليكيًا »

ثمّ دخل البطريرك الدخيل دير الزعفران ولم يزل يقوم ويقعد الى ان قبض على خصمهِ وطلب منهُ الطاعة فابى فالقاهُ في حبس مظلم بقي فيهِ اربعين يومًا ثمّ اخرجهُ واتى بهِ الى دير الزعفران وهو ينوي ان يتخلّص منهُ ويقتلهُ خفيةً. فلم يسمح الله باجتراح هذا الاثم الفظيع وبلغ حاكم ماردين عبدي باشا ما فعل متى الدخيل فانتقد اغناطيوس جروه من يديهِ وعاقبهُ على سوء معاملتهِ لهُ. ثمّ عاد الدخيل الى اعمالهِ الفظّة بعد خمسة اشهر وانتهز لذلك فرصة تغيير الحاكم. ولم يجد البطريرك القديس مفرًا من هذه الاضطهادات الّا الهرب فاتصل بقوم من العرب والاكراد وسافر معهم الى الموصل على طريق البرّيّة والتجأ بوالي الموصل. وبقي تحت حماهُ مدّةً وهو يرشد الكاثوليك الذين ارتدوا الى الايمان على يدهِ وكان بعث اليهم سابقًا من حلب كاهنًا يرشدهم. فثبتهم في ايمانهم مدّة شهرين قضاهما في الموصل

غير انّ خبر هرب البطريرك الكاثوليكي شاع بعد زمان فعرف خصمهُ الدخيل

(١ راجع ملحق البولاريوم (Append. ad Bullarium II, 273)

انهُ في الموصل فارسل الى والي بغداد شكايات كاذبة عليه يدَّعي زوراً انهُ من اعداء الدولة. فلم يصدّق والي بغداد هـذه الوشايات لكنهُ كتب الى والي الموصل يستقدم البطريرك الى بغداد فاركبهُ نهر دجلة على الطُّوف (الكلك) وارسلهُ الى مدينة السلام. فلمَّا بلغها فحص الوالي عن امرهِ وتبيَّن براءتهُ وتحقَّق كذب اخصامهِ ثمَّ وعدهُ بان يسعى لدى الباب العالي فينال لهُ فرمانًا الَّا انَّ رغائبهُ لم تتم بالفعل لبعد المسافة بين بغـداد والاستانة العليَّة ولقلة ذات يد السيد ميخائيل جروه

وكان البطريرك الدخيـل في غضون ذلك لم يألُ جهدًا في قلع بذور الكثلكة وهلاك زعيمهم يعينهم على بلوغ غايتهم البطريرك الارمنيّ الاراتيكيّ. فنـال اوامر جديدة تثبت لهُ الحقوق على خصمهِ وتقضي بنفيهِ من بلاد ما بين النهرين. فارسل والي القبض على المطارين والكهنة وائنة الكاثوليك في ماردين وشدَّد عليهم لينكّب بهم عن معتقدهم فزلزلوا قولهُ كلهم بلسان واحد وآثروا كل البلايا على مطاوعتهِ

وعلم البطريرك ميخائيل جروه في بغداد انَّ مصائب جديدة تنتظرهُ إلَّم يهرب من وجه اعدائهِ اليعاقبة. فجمع في بغداد اعيـان الكاثوليك سرًّا وطلب منهم المشورة. فاشاروا اليهِ ان يفرّ هاربًا الى سواحل الشام لقلة اليعاقبة في تلك الجهات ويقصـد من ثمَّ بلاد كسروان وقرضوهُ مبلغًا من المال ليتفقهُ في لوازم سفرهِ. واخبر عن نفسهِ قال:

« واخرجتُ بالمزوج من بغداد بالليل خفية متزيًّا بلباس احد العرب ماشيًا بلا ركب ومعي رفيقان. ولمَّا وصلنا الى مكان بعيد خارجًا من المدينة ركبنا الجمال التي لم اعرف قط ركوبها مسيرة ثلاثة ايام من العرب استكرينا إياهم بمائة من الذهب وكنَّا مع ذلك خائفين من المواقع الضرورية في طريق القفر الخالي من الماء بل المسلّ خوفًا ورعبًا من الوحوش الضارية واصحاب النزوات. وهنا أصمتُ عن ايراد ما قاسيتهُ في هذا الطريق المخيف. وعلى كلّ ذلك كان الدم يجري من كل جسدي كالينابيع لاجل سرعة الذهاب وطول السير وكان العرب من اصحابنا اخذونا على طريق بعيد جدًّا من خوفهم من قاطعي الطرق ومن قبـائل اعدائهم. ولذلك كنا نسير في الطرق غير المسلوكة ونضطرّ في بعض الاحيان ان ننزل في بعض اودية تلك البريَّة لئلَّا ينظرنا الغزاة ويقتلونا. ولم نزل نواصل السير بسرعة غريبة حتَّى قطعنا مسافة ستين يومًا بخمسة عشر يومًا فوصلنا الى تدمر. وحينئذٍ سمعوا عن احوال الشام ما ملأهم خوفًا فامتنعوا ان يذهبوا معنـا واخذوا جمالهم وتركونا بين ايدي عرب تلك الناحية. فاصابنا رعبٌ شديد وقطعنا الرجاء من الحياة كليًّا ثم سلَّمنا امرنا الى ارادة الله والتجأنا الى مريم البتول سيدة النجاة لتخلّصنا من هذه الشدَّة كما نجَّتنا وحفظتنا في كلّ مسيرنا. فألهمت احد هؤلاء العرب وحنَّت قلبهُ عليَّ فاركبني جملهُ و بذل نفسهُ في خلاصي

فذهب معي من تدمر الى القريتين ثمَّ سرنا راكبين الحمير مع اناس سائرين بالقفلة (البندقيات) فوصلنا ليلة احد الشانين الى قرية بعيدة عن دمشق اربع الساعات تدعى العذراء جميع سكانها من المسلمين ورجع الاعرابي الى تدمر بجملهِ. فبقينا هناك يومين ولم ندخل المدينة لوجود المراطقة من الروم واليعاقبة فيها. ثمَّ نحن علينا ناس من اصحاب المخبر واركبونا حميرهم واخذونا من خارج دمشق بالليل الى قرية تبعد عنها نصف ساعة لانا لم نجد طريقاً آخر الى جبل كسروان وبقينا هناك في بيت احد افاضل المسلمين يومين حتَّى سهَّل لنا الله الرحوم الصعود الى كسروان. وكان وصولنا الى اوَّل قرية منهُ في يوم السبت العظيم ليلة احد القيامة. ونزلنا في احد الاديرة الحزينة[1] بجانب القرية ونحن في حالة التائب كممدوبي المياه خالين من الكسوة والمعاش. وصرنا نقبل القوت الضروري عن حسنات المؤمنين الذين في تلك القرية. واما مطاريني ورهباني والشماسة خدَّامي الذين كانوا باقين في ماردين فصحَّ لهم بعد اتعاب وافرة ان جربوا بعضهم الى حلب وبعضهم الى مصر وبعضهم الى اماكن اخرى كما بلغنا ذلك عنهم اخيراً »

غير انَّ البطريرك ميخائيل جروه لم يحصل هناك على الراحة التي كان ينتظرها. فانَّ امور الشام كانت وقتئذٍ في اسوإ الاحوال وكانت الحرب قائمة سوقها بين الامير يوسف الشهابي والجزَّار صاحب صيداء واستولى الخوف على جميع اهل تلك البلاد لما يعرفونهُ من شراسة الجزَّار الذي كان دخل بيروت واخذ يتهدَّد لبنان. فصار البطاركة والمطارين والرهبان انفسهم خائفين على ارواحهم لا يأمنون عليها في الجبل

ثمَّ حضر بعد اربعة اشهر الى الدير الذي احتلَّهُ البطريرك ميخائيل خمسون راهبة كنَّ هربنَ من ديرهنَّ فالتجأنَ الى هذا الدير ولم يعد مكان لغيرهنَّ فدخل البطريرك الى بيت شباب ونزل عند بعض الفلَّاحين المحسنين فسكن عندهُ نحو اربعة اشهر اخرى يقتات من حسنات المؤمنين

٤

وفي تلك الاثناء زادت حالة البطريرك سوءاً بمجيء احد اساقفتهِ واحد شمامستهِ فضاق عليهم المعاش لاسيما انَّ تلك السنة كان فيها غلاء عظيم دام الى اواخر سنة ١٧٨٥ لكنَّ الله شفق بعبادهِ وعُقد الصلح بين والي صيداء والامير يوسف. فقام البطريرك جروه مع حاشيتهِ وتوغَّل في كسروان فوجد فوق قرية درعون ديراً يُدعى الشرفة لحسن موقعهِ وكان هذا الدير قد ابتناهُ سنة ١٧٥٧ الخوري يوسف الطرابلسي الدويهي فاتَّفق البطريرك مع أصحابهِ واستأجرهُ منهم واتَّخذهُ لهُ مقرًّا وجعل كنيستهُ على اسم سيدة

١) هو دير مار انطونيوس الكبير في قرية بيت شباب

النجاة (١ وكان ذلك في منتهى سنة ١٧٨٣ ونزلت معهُ حاشيتهُ فصار هذا الدير كمركز امين بل حصن حصين يلتجئ اليهِ كلّ ابناء الكنيسة الكاثوليكيَّة من السريان كما كان دير المخلص في الكريم ودير السيدة في بزمّار المجاورين لدير الشرفة مقاماً لبطريرك الارمن الكاثوليك ومن جحد الضلال من ملّتهِ

الّا انَّ البلايا والضيقات تتبعت غبطة السيد الجليل ميخائيل اغناطيوس جروه حتى في مسكنهِ هذا الامين. وذلك انَّ فقرهُ كان مدقعاً لا يكاد يلقى اللازم للقيام بمعاشهِ ومعاش ذويه وكان ينتظر حسنات من اهل رعيَّتهِ في حلب لكنَّها تأخرت زمناً طويلاً لقلة الامان في الطرق بين حلب ولبنان وحدوث الطاعون وصعوبة المخابرات بعد وَضع الحجر الصحي. ثمَّ اخذ غرماؤهُ يطالبونهُ بديونهِ مع قلة ذات يدهِ يلحُّون عليهِ ويتهدَّدون وكلاءهُ في حلب وماردين وبغداد بالحبس والاهانات. فكانت هذه المراسلات تزيد قلبهُ ألماً وهو لا يرى مناصاً من هذه البلوى الّا الصبر الجميل والدعاء الى الله بان يفتح لهُ باب الفرج

ووردت عليهِ ايضاً في ايّان محنهِ المذكورة كتابات عديدة حرَّرها اليهِ ابناء كنيستهِ المتمذهبون بمذهبهِ يعلمونهُ بما نالهم من النوائب والرزايا بسبب ايمانهم وكان البطريرك متى اليعقوبي الدخيل لا يزال يضايق عليهم ويغرّمهم اموالاً فوق طاقتهم حتى انَّ كثيرين منهم صاروا في حالة يُرثى لها. وكلّ هذه الاخبار كانت في قلب هذا الاب الحنون كسهام صائبة تمزّقهُ تمزيقاً وتحلّ قواهُ لاسيما انهُ كان فقير الحال لا يمكنهُ ان يمدَّ اليهم يد المساعدة. فصارت لذلك حياتهُ في عينهِ امرّ من الموت لكنهُ انتسى بأيوب البار والقى مقاليد امرهِ على الله متَّضعاً خانعاً وقد كتب في ختام ترجمة حياتهِ بعد ذكر كلّ هذه اللمّات والمصائب ما حرفهُ :

« فلكن اسم الرب مباركاً ومسجّداً لانهُ خيراً صنع معي اذ ذلّلني لكيما اتعلم معرفتهُ. نعم انَّهُ قصد تأديبي بآدابهِ المقدَّسة لكنهُ للموت لم يسلّمني . . . فانا اشكر افضال الهي على هذه الحال وعلى كلّ حال واطلب ممَّن يطّلع على اسطرنا هذه ان يصلي لاجلنا ويلتمس لنا من الرب الرحوم نعمة الصبر ولاسيما الخلاص »

وكان تاريخ كتابة هذه الترجمة في سنة ١٧٨٥. وعاش البطريرك الجليل بعد ذلك

(١ ثم ابتاعهُ بعد مدَّةٍ بمبلغ لا يتجاوز ٢٥٠٠ غرش كما ورد ذلك في صكّ مخطوط يحفظ في دير الشرفة

خمس عشرة سنة انقطع فيها الى الاعمال الروحيَّة والمساعي المبرورة الآئلة الى خير ملَّته وقد اسعفهُ الكرسي الرسولي في مشروعاته الخطيرة غاية جهده حتَّى تمكَّن من اصلاح شؤون رعيَّته وتلافي الاضرار اللاحقة بها من قبل اعدائها وجازاهُ الله بان رأى الايمان الكاثوليكيّ عمّ كلّ السريان في حلب وانمحت فيها آثار البدعة اليعقوبيَّة

ومن اقوى الوسائل التي ارشدتهُ اليها غيرتهُ الرسوليَّة لخير طائفته انهُ جمع في دير الشرفة بعضًا من شبَّان طائفته ازدانوا بالتقى والذكاء فسعى بتخريجهم بالآداب الكنسيَّة والعلوم الالهية ليرسلهم الى خرافه التي بقيت بلا رعاة. فصار بذلك ابًا لكهنة صالحين ورُسل غيورين أتوا منذ ذاك العهد الى ايَّامنا باثمار يانعة ازدانت بها حديقة الكنيسة. وعليهِ فقد احسنت مدرسة الشرفة اذ تقدَّمت كلّ الطائفة في اكرام منشئها والحسن اليها لمَّا اقامت ذكرًا لهُ هذه الحفلة البهيجة التي صدَّرنا مقالتنا بوصفها

وكانت وفاة المثلَّث الرحمات البطريرك اغناطيوس الاول في ١٦ ايلول من سنة ١٨٠٠ وقد بالرب بالهدوّ والسلام مردّدًا قول الرسول (٢ تيموثاوس ٤ : ٧و٨) : «جاهدتُ الجهاد الجميل وأتممتُ شوطي وحفظت الايمان واثنا يبقى اكليل العدل الذي يجزيني به الربّ الديان العادل». اسكنهُ الله فسيح جنَّاتهِ ونفعنا ببركة صلواتهِ آمين (١

الموارنة في ليثرنو

من رسالة للقس الملفان بولس القطاويّ اللبناني

«... خرجنا من رومية في ٢٠ اب الماضي مع الوفد الماروني الذي تشرَّف بمواجهة امام الاحبار وقصدنا مدينة ليثرنو لزيارة الموارنة القاطنين فيها فباغتنا اليها الساعة ٢ بعد نصف النهار فوجدنا على المحطَّة حضرة الآبائي (٢ الجليل يوحنَّا اغطين الدرعوني الراهب

١) وقد بارك الله عائلة البطريرك اغناطيوس ميخائيل جروة وهي لا تزال الى اليوم ممروقة في حلب ومصر والبندقية بشدَّة تقواها وقد نالت من كرم المبر الاعظم لقب مركيز جزاء مساعيها المشكورة في سبيل الدين وخير الملَّة. ومنها كان البطريرك اغناطيوس الرابع بطرس جروه ابن اخي صاحب الترجمة الذي جلس على كرسي البطريركية من سنة ١٨٢٠ الى ١٨٥١ ولهُ اعمال جليلة تدلُّ على سموّ فضلهِ. ومن افرادها والدة دولتلو سليم باشا ملحمه في الاستانة وسعادة الوجيه الفاضل المركيز ميخائيل دي جروه تريل البندقية وابن اخي البطريرك بطرس جروه

٢) الآبائي عند الغربيين كالمورفتوقوس عند الشرقيين